خان الخليلي في مصر
أسواق تحمل كل حنين المدن التي تحضنها

ذكر باولو كويللو في كتابه «river like the flowing» أن من يزور مدينة عليه ألا يشغل نفسه بزيارة متاحفها و آثارها التاريخية ليفاخر بها أمام زملاء العمل، بل عليه أن يبحث في شخصيتها و أن يجلس في مقاهيها و يتحدث إلى أهلها و يتذوّق طعامها و يعيشها بكل حواسه. هذه النصيحة التي أعتمدها في أسفاري تجعلني أشعر بالاكتفاء لأن التعرّف إلى عادات سكان البلد الذي تزوره و تقاليدهم يكوّن لديك انطباعًا شخصيًا و غنى ثقافيًا، يجعلك تتعرف إلى الوجه الحقيقي للبلد بعيدًا عن أدوات التجميل التي تستعملها الشركات السياحية لمنحك أكبر مقدار من الراحة المترفة خلال إجازتك. و يبقى التجوال في السوق الشعبي مغامرة فريدة يتذكرها المسافر بعد أن يعود أدراجه في بلده الأم. و في مدن العالم أسواق شعبية تشبه المتاهات من حيث الباعة و البضائع و الروائح التي تفوح في أجوائها.

من منا لم يسمع بخان الخليلي في القاهرة، فالمرء إذا لم يذهب إليه شخصيًا فلا بد أنه قرأ رواية «خان الخليلي» لنجيب محفوظ. و خان الخليلي واحد من أعرق أسواق الشرق، يزيد عمره قليلاً على 600 عام، معماره الأصيل ما زال باقياً على حاله منذ عصر المماليك. لو عدنا بالزمان إلى الوراء يطالعنا المؤرخ العربي الأشهر المقريزي بقوله إن الخان مبنى مربع كبير يحيط بفناء و يشبه الوكالة، تشمل الطبقة السفلية منه الحوانيت، و تضم الطبقات العليا المخازن و المساكن، و قد سمي بهذا الاسم نسبة إلى منشئه الشريف الخليلي الذي كان كبير التجار في عصر السلطان برقوق عام 1400.

و لا يعرف أحد حتى الآن الفلسفة المعمارية التي بني على أساسها خان الخليلي، فالأرض مرصوفة بحجر بازلتي أسود لامع، و السوق مسقوفة بخشب تحدى الزمن و عوامل التعرية، و الشمس تتسلل إلى حوانيت تشكل مع بعضها سراديب مليئة بالكنوز و التحف النادرة، و تعرض النحاسيات و العطور و المجوهرات، فيما يعمل بعض الحرفيين على مرآى من المشتري.

و يعتبر شارع صناعيي الخيم سوقًا في قلب السوق. كما تحتشد في الخان المقاهي الشعبية التي تقدّم الشاي و الشيشة على الطريقة المصرية، و ما عليك سوى الجلوس في أحدها حتى تتعرّف إلى أسلوب التواصل بين سكان هذا الحي و عاداتهم و تقاليدهم. ففيه كل سحر مصر القديمة و الحديثة.

النسر العربي الدولية © ٢٠١١